مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: الاسبوع العربى
التاريخ : ١٩٧٠/١١/٩

مصر السادات

بقلم سمير شاهين

كبار الصحفيين الاجانب عندما كان يشاهد ذلك الموج البشري المتلاطم الذي كان يسد الافق في جنازة الرئيس الراحل عبد الناصر . لم يتمالك الا ان يتساءل : « الى ماذا ستتحول هذه الطاقة بعد عبد الناصر » ؟ . . السؤال رمزي الى حد ما . ولكنه يصيب مكمنا حساسا من حيث انه يطرح مصير الولاء العميق الذي ربط طيلة ١٨ عاما بين الجماهير والزعيم ، الزعيم الذي جسدت اعماله آمالها . فاسلمت له الزمام والقيادة . وبالاحرى فان هذا السؤال كان يطرح الوضع الداخلي في مصر بعد عبد الناصر . ومدى امكانية الخليفة او الخلفاء السيطرة على هذا الوضع والامساك

بالزمام · والذي لا شك فيه ان الوضع داخل مصر قضيـــة شديدة التعقيد · فثورة ٢٢ يوليو كما لا يخلف اثنان ، قد حققت انجازات ضخمة وتاريخية فعدا انها قلبت وجه مصر الاجتماعي فقد حققت لها زعامة عربية ومكانة دولية ، وقد كشف مدى هذه المكانة ،الصدى الذي تركه فقد عبد الناصر في جميع انحاء العالم · ولكن لم يكـن ممكنا ، ولم يكن احد يتوقع ان تقلب الثورة في ١٨ عامـــا كـــل الاوضاع المجمدة خلال الاف السنين · فهذه التركة الثقيلة ، كانت تحتاج لاكثر من ثورة ثقافية واجتماعية ، كما كانت تحتاج لوقـت اطول ، وانصراف كلي لمعالجتها ، ولكن الوقت لم يمهل عبد الناصر، كما لم يتح له الانصراف كليا لمعالجة الاوضاع المصرية الداخلية · فالخطر الخارجي ـ الصهيوني والاستعماري · كان دائما يحد من جهوده لتحقيق التغيير والاصلاح الداخلي ، عدا عن ان الميزانيـة الحربية ، وتعزيز الجيش ، كان لا بد ، كما يحدث في اي بلد يكون في حالة حرب ان ينعكس على التقدم الانمائي لهذا البلد وعلى اوضاع شعبه المعيشية ، ومع ذلك حقق عبد الناصر ، ما يشبه الثـــورة الصناعية ، فانشأ مئات المصانع وقاربت الصناعة المصرية في عهده على مرحلة الاكتفاء الذاتي · من الصحيح انها لم تبلغ بعد مرحلة التقدم والكمال ، ولكنها كانت خطوة ضخمة على طريـــق التصنيع الحديث · انما مع ذلك لم تستطع مئات المصانع ان تستوعب كـل الايدي العاملة ، لان الشعب المصري كان يتزايد بنسبة غير عادية ، فعند قيام ثورة ٢٣ يوليو كان عدد المصريين ٢٠ مليونا فاصبح بعد ١٨ عاما ٣٣ مليونا ، وهذه الزيادة العددية انعكست كذلك علـــى مشروع السد العالي ، وقد كان عبد الناصر نفسه يقول للصحفيين الاجانب الذين كان يستقبلهم ان مشروع السد ، سيواجه فقـــط الزيادة السكانية لعام ١٩٧٠ اي عام انجاز هذا المشروع · وكـان هذا معناه ان الزيادة السكانية في المستقبل يلزم لمواجهتها اكثر من سد عال اخر · وكانت اصعب المشاكل التي لم يستطع عبد الناصر حلها ، رغم كل المحاولات ، هي مشكلة الحد من التزايد السكانـي المخيف هذه المشكلة التي تعود الى جذور تاريخية مترسبة ليس من السهل هزها ·

كل هذه الاوضاع ، وخاصة اوضاع الحرب والمحاولات الاستعمارية المستمرة لضرب مصر والاقتصاد المصري كان لا بد ان تنعكس على اوضاع مصر الانمائية والمعيشية والداخلية عموما ، يضاف اليها نتائج الاخطاء والتجارب الكثيرة التي مر بها النظام الناصري ، والتي يتعرض لها كل نظام ثوري يحاول التغيير ...

ولكن شخص عبد الناصر ، الذي تجسدت فيه الاعمال المختلطة بالامال ، وخاصة اكمال التحرير ودحر العدو ، كان يحجب كل هذه الاوضاع ، او بالحري كان باستطاعة عبد الناصر بواسطة عنصري الثقة والايمان اللذين وضعتهما الجماهير فيه،ان يملك ولاء هذه الجماهير وتعلقها .

ولعل سؤال الصحفي الاجنبي عن مصير الطاقة الجماهيرية المصرية بعد عبد الناصر ، كان ينطلق من هذه الحقائق المصرية .

فقد كان الكثير من المراقبين خاصة الاجانب في القاهرة . يتوقعون حدوث شيء ما بعد عبد الناصر ، ان تنفجر المشكلات الداخلية ، ان يحدث صدام بين التيارات الجماهيرية الى اخر ذلك من التوقعات ، والتي كان يعززها الحديث عن الفراغ الكبير والكبير فعلا ، الذي احدثه غياب الزعيم .

ولعل الخشية من هذا الفراغ ، او بالحري من محاولات استغلال هذا الفراغ على الصعيد الداخلي ، من قبل بعض الفئات، هي التي حدت بخلفاء عبد الناصر (اللجنة التنفيذية العليا اولا ، ثم الوزراء واللجنة المركزية) للتفاهم بسرعة على الخليفة ، وعلى صيغة الحكم الخلف كلها . وقد تم ذلك كله خلال ٤٨ ساعة بين الاول من نوفمبر والثالث منه .

عندما تم اختيار انور السادات كانت القاهرة في غليان فعلي، اشاعات واخبار متناقضة متضاربة تنتشر بين الناس وفي

المنتديات وبين السفارات الاجنبية واسماء المرشحين اكثر من ان تعد ، والنبوءات اكثر من ان تحصى ، انما رغم ذلك كان الرأي السائد ان اسم السادات سيحسم الموقف ، وبالفعل حدث ذلك ·

ولكن رغم سرعة الحسم بقيت الجماهير غير مقتنعة بان احدا يستطيع ملء فراغ عبد الناصر ، لذلك لم يتوقف طنين النحل ،ولعل هذه الاجواء ، وهذا الشعور ، هما اللذان اوجدا عند السادات ومعاونيه فيما بعد عقدة محاولة ملء ما امكن من الفراغ ·

بعد ذلك انتخب السادات واقسم اليمين الدستورية امام مجلس الامة وبدأ اطلالته على الخلافة وعلى التركة معا ·

وليس صحيحا ما قيل من ان السادات ، اخل بعد انتخابه باتفاقات القيادة الجماعية التي سبقت الانتخاب ، اذا صح وجودها. انما الثابت فعلا ان السادات نفذ ما وعد به مجلس الامة فوزع المسؤوليات بشكل قريب من القيادة الجماعية ، ولم تكن في هذا التوزيع سوى مفاجأة وحيدة ، هي اختيار محمود فوزي لرئاسة الحكومة · ويقال ان اختيار فوزي كان بداية التحرك عند الرئيس السادات · فالدكتور فوزي الذي رافق الرئيس الراحل طيلة١٨ عاما يعني شخصه استمرارية الخط الناصري ، ولكنه يعني بالوقت نفسه اشياء اخرى ، منها انه اول مدني يرأس الحكومة منذ ١٨ عاما ، ومنها انه بحكم نشأته وثقافته له نظريات في الاصلاح اقرب الى الليبرالية ، او بعبارة اصح فهو اصلاحي النظرة ، كما وضح من حديثه الاخير مع محمد حسنين هيكل الذي عرض فيه افكاره في الاصلاح الداخلي وكان اهمها احداث تغيير في انظمة التعليم والصحة · وتتابع تحرك الرئيس السادات فأمن التوازن باختيار علي صبري نائبا لرئيس الجمهورية ، وقد وضح منذ اللحظة التي اختير فيها الدكتور فوزي لرئاسة الحكومة ان علي صبري سيكون نائبا للرئيس ، ولكن كانت هناك مشكلة ان حسين الشافعي كان مؤهلا او موعودا بهذا المركز ، وقد حرد فعلا ، فحل الامر بان عين الاثنان ، الشافعي وصبري في مركز نيابة رئاسة الجمهورية ، وهذا ليس جديدا ،ولكن الجديد انه لم يعين اي منهما النائب الاول او الثاني ، وذلك كما يظهر تفاديا لمشكلة اولوية الشافعي من حيث كونه عضوا تاريخيا في مجلس قيادة الثورة ·

والذين كانوا يتوقعون ان يكون السادات رئيسا عاديا لدولة كبيرة ، خاصة وانه يأتي بعد تلك الزعامة الضخمة ، فوجئوا به يتحرك ويحاول ·

بعد تركيزه الوضع الحكومي حسبما يريد ، وضمن استمرار الخط الناصري والمؤسسات الناصرية ، تابع السادات تحركه الداخلي · وكان اول ما فعله هو التوجه الى اهم شيء في هذا الوضع : الى الجيش · لا شك ان الجيش هو الجزء الاهم فيالوضع الداخلي والخارجي معا ، وقد ركزت مصادر الانباء الاجنبية بعد وفاة عبد الناصر خاصة ، على تصويب الاضواء نحو الجيش ، وعلى نسج الاخبار والقصص من داخل الجيش ، ابتداء من الحديث عن ضباط مجهولين وطامحين ، ونهاية عن انقسامات وهمية حول السلم والحرب على الجبهة · هذه الاخبار تحاك دائما في غرف السفارات المغلقة في القاهرة وتجد احيانا طريقها الى الصحف الاجنبية ، اما الحقيقة التي يعرفها السفراء العرب ، في القاهرة ، فهي ان جذور التسيس قد اجتثت من الجيش منذ ما بعد ١٩٦٧ وان الجيش الان بجميع ضباطه همه الاول عبور القناة وتحرير الارض المحتلة ·

وهذا العامل هو الاول الذي يجب الحسبان له فينفسية الجيش ضباطا وجنودا حيث هم الان مرابطون على جبهة القناة · وادرك السادات هذه الحقيقة وزار الجبهة ، وبحث كل شيء مع ضباطها بصراحة تامة ، وحاز ثقتهم وتاييدهم وكانت هذه ضربة المعلم ·

وبدأ رئيس الجمهورية بعد ذلك بالتعاون مع رئيس الحكومة في معالجة اوضاع داخلية اخرى اهمها : الاوضاع المعيشية · بعض الاوساط في القاهرة الان وخاصة اوساط المثقفين توجه انتقادات شديدة الى سلسلة التدابير الخاصة بتخفيض اسعار الحاجيات وترقية الموظفين الى اخر هذه التدابير التي تجري ضمن ضجة اعلامية والتي تناولت تخفيض اسعار الشاي والبطانيات والبلوفرات والاحذية ، وخلافها من المواد الهامة بالنسبة للطبقات الشعبية ، وحجة المنتقدين ان هذه التدابير قد تؤثر على ميزانية المعركة المفروض ان تراعي الحاجات الحربية اولا ، ولكن هناكنظرية تقول : ان تخفيض الاسعار سيؤدي الى زيادة الاستهلاك والتداول وبالتالي يحقق مزيدا من الانتاج فتكون فوائده مضاعفة ولا يؤثر على اموال الخزانة العامة ·

ولكن مهما كانت نتائج هذه التدابير ، فلا شك انها لاقت ترحيبا شعبيا ، وقيل ان المقصود بها اساسا تحقيق عنصر الاسترضاء الشعبي في سياق محاولات املاء الفراغ الكبير ، ولكن هناك من يقول : ان محاولات تامين ظروف معيشية افضل للطبقات الشعبية ، ومحاولات تخفيف القيود عن الكماليات والمستوردات

التي حرم منها المصريون خلال سنوات التطبيق الاشتراكي ، قد بدأت في أيام الرئيس الراحل ، منذ اكثر من عامين ، وكان من مظاهرها السماح للمصريين بالشراء من الاسواق الحرة التي تملأ شوارع القاهرة الان ، بالاضافة الى الغاء القيود عن السفر · على كل ففي رأس الدكتور فوزي كما وضح من حديثه مع هيكل برنامج عمل لاصلاح كثير من القطاعات الداخلية ، والمنتظر ان يشهد النظام قريبا تجربة هذه الاصلاحات ، ولاحظ المراقبون كذلك فيتصريحات فوزي اقتصارا على القضايا الداخلية دون الخوض في القضايا العربية والدولية ، رغم ان اختصاص الدكتور فوزي الاول هو الدبلوماسية والعمل الخارجي ، وهذا لا يدل على ان ج·ع·م· ستقلص دورها العربي والدولي ، بقدر ما يشير الى نية اعتبار المرحلة الحالية مرحلة التركيز في الاوضاع الداخلية ، والاهتمام بالاوضاع العربية والدولية بقدر ما تمليه ظروف المعركة بانتظار ان تحين الظروف لتناسب العمل الداخلي مع العمل الخارجي بعد ان يستقر الحكم ويأخذ سيره الطبيعي ·

ولكن ذلك لا يمنع ان الرئيس السادات بدأ تحركه العربي ، وقد يكون تحركا محدودا حتى الان ، فالقمة الثلاثية التي بدأت يوم الاربعاء الماضي في القاهرة ، هي اول اجتماع عربي على مستوى القمة بعد عبد الناصر وفي غيابه ، وكانت الغاية منها ليس فقط البحث في مراحل التنسيق بين الدول الثلاث ، بل التداول كذلك في الموقف العربي خاصة بالنسبة لقرار تمديد وقف اطلاق النار ، والموقفعلى الجبهه الشرقية ، وبعد ان انضم ابو عمار الى المجتمعين · لا يمكن حتى الان الجزم بمدى وشكل التحرك العربي القادم الذي سيجريه الرئيس السادات ، ولكن لا يوجد ما يدل على ان الرئيس المصري سيأخذ بنظرية الداعين الى الانصراف الكلي للمشاكل المصرية ·

والان والقاهرة غارقة في الاحتفالات الحزينه والضخمة بمناسبة ذكرى اربعين الرئيس الراحل التي شملت القطر المصري والعالم العربي من اقصاه الى اقصاه ، هناك من يتساءل فيما اذا كان عهد السادات ينوي اجراء تغييرات خاصة في الوضع الداخلي، حتى الان لا زال كل شيء يجري في مجرى الخط الناصري ، وفي خطى النظام الناصري ، ولكن ذلك لا يعني عدم وجود نوايا تطويرية لبعض الاجهزة والمؤسسات الناصرية ، ويقال ان التطوير سيفرض نفسه خاصة داخل الاتحاد الاشتراكي حيث تبرز عناصر شابة جديدة بدأت في التحرك ليس الان وانما منذ هزيمة حزيران واخذت تتقدم نحو مراكز القيادة وينتظر ان يتاح لها المجال اكثر الان ، ويقال ان هناك نوايا لتحويل الاتحاد الاشتراكي الى حزب حقيقي،كما يتوقعون في القاهرة تغييرات وزارية انما ليس الان ، وكذلك تغييرات فيالسلك الدبلوماسي وفي المراكز الادارية على ان يجري ذلك تدريجيا ·